السّياق والفعل الكلاميّ

الباحث حسين صادق ذاري

كليّة التربية/ جامعة واسط

توطئة:

بعد الجمود والتّصوف التّركيبي والخمول في الخروج عن إطار النّصّ، أو التّنقّل بين أركانه لبيان التّلميحات الدّلاليّة الّتي من شأنها إزالة النّقاب عن الكلمة، أو الجملة، أو مجموعة جمل، أو النّصّ بأكمله، أو الفكرة لكتاب برمّته. وكان لا بدّ من اللّجوء إلى السّياق الذي يُعتمد عليه في النّظريّات الّتي تتّخذ من النّصوص الشّعريّة والنّثريّة مادّة للدّراسة. ومن ضمن تلك النّظريّات (نظريّة الفعل الكلاميّ) الّتي تحتضن السّياق، وتعوّل عليه كثيرا؛ ذلك لأنه لا احتماليّةً لتعدّد المعاني إذا أهمل السّياق. وقد جاء هذا البحث مبيّنا حاجة الفعل الكلاميّ للسّياق بعنصريه: (اللّغويّ وغير اللغويّ).

إنّ النّظر إلى ما يسبق الكلمة وما يلحقها من المسلّمات الّتي ينبغي لنا أخذها بالحسبان عند تحليل أيّة مادة لغويّة، وهذا ليس كافيًا، بل يُنظر إلى ما يسمى السّياق الخارجيّ، وهو خارج عن بِنية النّصّ الشكليّة، ما ذكرناه يسمّى (بالمقام) قديمًا والسّياق حديثًا. حيث راعى النّحويّون المقام في تفسير الجملة النّحويّة للوصول إلى الإعراب الّذي يتناسب مع قصد المتكلّم، حتى إنْ كان الإعراب من المسلّمات النّحوية، فعندنا قاعدة تقول: (إنّ كلّ اسم نكرة منصوب بعد أفعل التّفضيل يعرب تمييزًا)؛ لكنّها جاءت في سياق شعريّ مخالفةً للقاعدة، منه قول الشاعر[١]:

لا تطلبنَّ خؤولةً في تَغْلِبٍ.....فالزّنجُ أكرمُ منهمُ أخوالا[٢]

يقول (المبرّد): "(أخوالًا) منصوب على الحال ومن زعم أنّه تمييز فقد أخطأ"[٣]. ويوافقه الدّكتور (فاضل السّامرائي)، فالسّياق لا يُجيز التّمييز؛ وذلك "لأنّه لم يقصد أنّ أخوال الزّنج أكرم من منهم، وإنّما يقصد أنّ الزّنج إذا كانوا أخوالًا أكرم من تغلبَ إذا كانوا أخوالًا"[٤].

أمّا في إطار البحث التّداوليّ، فالنّظر في السّياق أمر مهمّ في دراسة العلاقة بين الرّموز، والسّياقات، والمستعملين لها. فالسّياق في العمليّة التّواصليّة يستدعي "كلّ ما يحيط بالخطاب من عناصر تساعد على ضبط المعنى، فيستغلّها المتكلّم باعتبارها آليات تكشف عنه، وتسهم في تأويله؛ حتّى يستطيع الوصول إلى مبتغاه من مقاصد وأهداف، وتتنوّع هذه المقاصد والأهداف حسب تنوّع السّياقات من لحظة إلى أخرى في مجرى الخطاب"[٥]. فهو الظّروف الّتي تُحيط بفعل التّلفظ في أثناء الكلام.

وللسياق أهمّيّة في الكشف عن مستويات القوى الإنجازيّة، ذلك لأنّها متفاوتة من حيث الشدّةُ والضّعفُ، لذلك فدرجة الشدّة والضّعف موكولة إلى السياق، وفي رسائل (ابن الأثير) رسالتان تلتقيان في الموضوع نفسه، وهو طلبُ حاجةٍ، في الأولى يقول: "يقبّل الأرض بين يدي مولانا الملك الأفضل نور الدّنيا والدّين، جعله الله على الممالك قيّمًا، و في ذرى العلياء مخيّمًا، وأحصن به عقائل المكارم ولا أبقى منهن أيّمًا، و لا زالتّ أيّامه

مواسم الجود، ومعالم الوفود ومناظم عقود الجدود، وملاحم كَمَد العدوّ والحسود"[٦]. هي رسالة منه إلى (الملك الأفضل) علي بن يوسف.

وفي الثّانية يقول: "من شيم الكرام الّذين أوطأهم المجلس عقبه، وأرسل دونهم حجبه، أن يروا الخلّة على خفاء مكانها، فيبذلوا فيها من الطّواعيّة فوق إمكانها، وللخادم حاجة يخفّ السّعي فيها على اللّسان، و تثقل المنّة بها في الميزان"[٧].

فاختلاف المنزلة الاجتماعيّة والمؤسّساتيّة (للمرسل إليه)، الّتي تُعدُّ من العناصر السّياقيّة المهمّة الّتي تحكم الفعل الكلاميّ من حيث القوّةُ والضّعف. والفرق واضح بين هاتين الرّسالتين، ففي الرّسالة الأولى أعطى (المرسل) (للمرسل إليه) قداسةً أعلى بكثير من إعطائه (للمرسل إليه) في الرّسالة الثّانية، والسّياق هو القاضي في الحكم الّذي أطلقناه، فقد نظرنا إلى صفة من صفات المتلقّي، ألا وهي مكانته، فوجدنا أنّها كانت ذاتَ أثر بيّنٍ في تضمين النّصّ في الرّسالة الأولى ألفاظًا دالّة على العلوّ والتّعظيم لشخص (المرسل إليه)، فـ(يقبّل) فعل كلاميّ خرج للتعظيم والتّشريف بصفة غير مباشرة، و(جعله الله...) جملة إخباريّة متضمّنة فعلًا إنشائيًّا وهو الدّعاء، عاطفًا عليها ما بعدها (وفي ذرى العلياء...)، وهي للدعاء أيضًا، و(أحصن عقائل... أيّمًا)، وهذه جمل خبريّة متضمِّنة أفعالًا غير مباشرة، وهي علوّ إيمانه وشرفه، بحيث أصبح حصنًا لعقائل المؤمنين، ودرّ عليهنَّ من خيره بأنْ لم يُبقِ منهنّ عزباءَ لا معينَ لها.

هذا المقدار كلّه من الصّفات الّتي أُلقيت بين أثناء هذه السّطور، كانت -كما يرى المرسل- تتناسب والمقامَ الّذي كُتبت فيه، مقارنةً مع الرّسالة الثّانية الّتي وصف فيها (المرسل إليه) بالكرم والإسراع في قضاء الحاجة، ثمّ يشرع في طلبه صراحةً، فقد رأى -(المرسل) أنّ هذا المقام يتناسب مع هذا المقال.

تبيّنت لنا من خلال المثالين المذكورين آنفًا أهمّيّة السّياق في تفسير الفعل الكلاميّ، فهو ركيزة أساسيّة؛ لذلك أعطاه علماء التّداوليّة أهمية قصوى، فهذا (أوستن) يبيّن أنّه ينبغي لنا النّظر في الظّروف والملابسات الّتي من شأنها إنجاز الفعل الكلاميّ[٨]، وفي جميع الأوضاع كلّها الّتي صدرت منها العبارة[٩]، وهذه عناصر سياقيّة، كما يبيّن (جون ليونز) أهمّيّة السّياق للفعل الكلاميّ[١٠]. ويؤكّد (فان دايك) أنَّ صدق الإنجاز موكول بنطق الفعل في سياق ملائم[١١].

أمَّا (أولمان) في تعريفه للسياق، فقد ربط بين الكلمة وسابقتها ولاحقتها، ثمّ علاقتها بالنّص كلّه، ثم بالكتاب كلّه، والظّروف المحيطة بها، والسّياق غير اللّغويّ أو الخارجيّ[١٢]. ويعلّق الدّكتور (علي محمود الصّرّاف) قائلًا: "إنّ قول أولمان هذا يقدّم السّياق كمنظومة تحيط باللّغة فتحدّد طبيعتها الدّلاليّة واستعمالها، وهذا الجانب هو أهمّ ما يتعلّق بالدّرس التّداوليّ الّذي تُعدُّ الأفعال الكلاميّة إحدى صوره"[١٣].

عناصر السّياق:

سنعرض عنصري السّياق؛ لأنّ الأفعال الكلاميّة ترصد النّصّ الّذي يحوي أغراضًا إنجازيّةً، وترصد حال كلٍّ من (المرسل) و(المرسل إليه)، وأثر هذه العناصر في إنجاز الفعل اللّغويّ غير المباشر، والكشف عن الغرض الإنجازيّ الّذي يحويه، وفي تباين القوى الإنجازية في النّصّ:

أوّلًا: السّياق اللّغويّ:

تتحدَّد فيه وظيفة الكلمات في إطار النّصّ، من خلال ترابط الكلمات بعضها ببعض، وكذلك الجمل، لذلك عُرِّف بأنّه: "السّياق الدّاخليّ الّذي يعنى بالنّظم اللّفظيّ للكلمة وموقعها من ذلك النّظم آخذًا بعين الاعتبار ما قبلها وما بعدها في الجملة".[١٤] وترجع أهميّة السّياق اللّغويّ في الكشف عن معنى الكلمة داخل النّصّ، ذلك لأنّ الكلمة داخل السّياق -كما يبيّن (ابن الأثير)- إذا أصبحت مركّبة في جمل تأخذ حكمًا آخرَ.[١٥] فامتزاج الألفاظ في النّصّ يعطيها معنىً آخرَ بحسب السّياق الّذي ترد فيه، فكأنّ الألفاظ تذوب في فضاء النّصّ كذوبان قطعة السّكر في الماء، من هنا فإنّ علماء التّداوليّة يرون أنّ" التّواصل اللّغويّ يتوقّف على ما توفّره اللّغة من قواعد وقوانين صرفيّة وصوتيّة وتركيبيّة... "[١٦]، منوهين على أنّ هذه القوانين تظلّ غامضة في حال انفرادها، فقيمتها تظهر في السّياق الّذي ترد فيه. وللسّياق اللّغويّ عناصر هي:

عنصر الصّوت:

للأصوات أثر في الوصول إلى الدّلالة الصّحيحة لمقصد المتكلّم، ولمعرفة قوّة الدّلالة، فـ"بعض الأصوات تحمل سماتٍ دلاليّةً خاصّة بها، ممّا يكسبها القوّة والضّعف. وفي النّصّ القرآنيّ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرّحمن: ٦٦] أنّ الخاء لغلظها لما هو قويّ وشديد، والحاء لما هو رقيق وضعيف. ومثلها (خضم وقضم)، و(سعد وصعد)، وكذلك لاحظ (ابن جنيّ) ما لصفة الصّوت من قابليّة المدّ والتّفخيم لإفادة دلالة المدح والثّناء"[١٧].

مع أنّ الرّسائل مادّة مكتوبة، فإنّ للصوت سمةً مهمّة فيها، بدليل أنّ كاتب الرّسائل عالم فذٌّ بأمور العربية، وناقد كبير منها، فـ(ابن الأثير) كما يقول مولود بغّورة: إنّه "في عمليّة بناء أدبيّة الخطاب... يُقيم وزنًا لفصاحة الكلمة، وينتقي من الألفاظ الأحسن صوتًا"[١٨]. ونستطيع القول من هذا المنطلق إنّنا يمكن أن نّعوّل على دلالة الصّوت في دراسة الرّسائل بحسب هذه النّظرية، وأن نُعطيه شأنًا؛ لأنّ الرّسائل -فضلًا عن مكانة كاتبها- تحمل ما يريده المتكلّم بين ألفاظها أحيانًا، (فهي ليست منطوقة). كما ويرى (ريتشاردز) يرى "أنّ جناس الصّوامت الصّوتيّ (...) فعّال جدًّا، ويعطي واحدنا فكرةً حول فكرة ما"[١٩]، كما أنّه يرى أيضًا "أنّ صوت كلمة ما له بكلّ وضوح الكثيرُ، مع الشعور الّذي يثيره إذا ما ظهر في سياق منظَّم"[٢٠]. لذلك سنرى فاعليّة هذا العنصر السّياقيّ من خلال الأمثلة.

وقد كان للجانب الصّوتيّ حضورٌ واسعٌ في رسائل (ابن الأثير) بحسب الموضوعات الّتي كتب فيها رسائله، ففي رسائل الحرب ترتعد كلماته بالقوّة الصّوتيّة الّتي تفيد الموضوع الّذي يكتب فيه، من ذلك قوله: "وقد فاز المملوك منهنّ بمنقبة كثيرة الأحساب قليلة الخطاب، تكون لصاحبها في الدّنيا رافعة، وفي الآخرة شافعة، وهي قود الجياد إلى مواطن الجهاد، وابتكار الفتح الّذي تملى فيه معاني القضب على ألفاظ الكتب... "[٢١]. في رسالة كتبها عندما هزم (صلاح الدّين الأيوبيّ) الفرنج في طبريّة[٢٢]، إذ نلاحظ قوّة الكلمات من خلال الانسجام الصّوتيّ بينها بتكرار الحرف الواحد بين الفواصل، كتكرار القاف الدّالّ على الشدّة والقوّة، وقد تكرّر في هذه الرّسالة (ثماني وخمسين مرّة)، وفي الرّسالة نفسها تكرّر حرف الدّال (ثماني وسبعين مرة). من هنا نلحظ أثر الصّوت في السّياق اللّغويّ، والدّلالة التّأثيريّة الّتي يحملها في نفس القارئ.

ويقول في رسالة أخرى فيها: "وقصد ثغر طبريّة في جمرة من المسلمين تقلّ إذا عدّت، وتكثر إذا شدّت،(...)، وأحاط به إحاطة الثّوب بالجسد، والطّراف بالعمد، فما نزله حتى نازله، ولا شارفه حتى زاحفه، وتقدّم الرّماة فأرسلوا عليه رجل جراد حجب بين الشمس وبينه"[٢٣]. كتبها لمّا هُزم الفرنج في وقعة تل حطّين، وفي هذه الرّسالة نلحظ أثر التّناغم الصّوتيّ والاختيار الموفّق للكلمات والمجانسة بينها، وكأنّ الكاتب صوّر الجيش وقوّته وصموده بآلة تصوير، لا بالكلمات، وقد وثّق فيها الواقعة بصورة تؤثّر في السّامع.

أمّا كتب التّعزية فنلحظ خلاف هذه القوّة تماشيًا مع الحدث وموضوع الرّسالة، معتمدًا على المدّ في الحروف لإظهار التّوجّع والحزن، ففي رسالة يعزّي بها أحد أصحابه المقرّبين بوفاة والدّه: "جاء هذا الكتاب وقد شقّ قرطاسه كما يشقّ من الثّاكل جيب لباسه، وأبدت الكآبة على وجه، وتكاثرت العثرات في خطى أقلامه، ويقلّ ذلك لوفاة السّيد الأجلّ فلان أرضاه بالعيشة الرّاضيّة، وحباه بما يصغر دنياه الماضية"[٢٤]. استطاع الكاتب من خلال الأصوات الدّالّة على الحزن والألم أن يؤثّر في السّامع، فقد عوّل على المدّ في الحروف لإظهار الحزن في جوّ الرّسالة، فالجانب التّأثيريّ يظهر حين ينطق السّامع بكلمات يرى في نطقها دلالة الحزن: (جاء، وقرطاسه، والثّاكل، ولباسه، والكآبة، وتكاثرت، والعثرات، وأقلامه، وأرضاه، والرّاضية، ودنياه). فضلًا عن تعلّق الأصوات بكلمات لها دلالة من خلال اتّصالها بالنّصّ.

وقد تصطدم القوّة مع الألم والحزن في رسائل التّعزية، لأنّ المتوفى قائد عسكريّ، من ذلك قوله في رسالة يعزّي ابن (مجاهد الدّين قايماز) لوفاة والدّه: "فليلزمِ الوشيج بعده موطنه، والحديد معادنه، ولتبكه الحرب وما حوته من موقد نارها، ومثار غبارها، ولئن شقّت عليه الجيوب، فقد شقّت عليه الأعلام، وأوحشت من غيره الدّيار، فقد أوحش من الجيش الهمام، فرزؤه في الرّزايا كمزيّته في المزايا"[٢٥]. تظهر القوّة في ذلك التّناغم الصّوتيّ في الموطن الدّالّة على شجاعة القائد بعد أن بكته ساحة الحرب وتصادُمُ الرّماح، ويصطدم فيها الحزن في انتهاء الفاصلة في قوله: (موطنه، ومعادنه)، من خلال صوت الهاء، هذا الصّوت الخارج من أعماق الجهاز التّنفسيّ[٢٦].

من هنا نلحظ فاعليّة الصّوت في إنجاز الفعل الكلاميّ، والجانب التّأثيريّ الّذي يُحدثه عند القارئ، لذلك قيل : "إنّ مادّة الصّوت هي مظهر الانفعال النّفسيّ، وإنّ هذا الانفعال بطبيعته إنّما هو سبب في توزيع الصّوت بما يخرجه فيه مدًّا أو غنةً أو لينًا أو شدّةً، وبما يهيّئ من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النّفس من أصولها، ثمّ يجعل الصّوت إلى الإيجاز أو الإطناب والبسط بقدر ما يكسبه من الحدّة والارتفاع والاهتزاز وبُعد المدى ونحوه"[٢٧].

ما قيل يهيّئ الصّوت كمادة تساعد دارس هذه النّظريّة في الكشف عن مستويات القوى الإنجازيّة وقراءة نفسيّة المتكلّم، ومعرفة مدى التّأثير الّذي أحدثه في نفس السّامع.

دلالة التّركيب:

تغيّرت المفاهيم النّحويّة في علم اللّغة بعد خروجه من دوّامة التّوليديّة "لصالح المفاهيم الدّلاليّة الجديدة القائمة على التّصوّرات الذهنيّة الّتي تبرز منطقة التّصوّر عبر المحمولات الاسميّة الّتي تقتضي ترابطاتٍ بين مجمل الوحدات المتصوَّرة"[٢٨]، ونتيجة لذلك الخلط بين الدّلالة والتّركيب أصبح من الضّروريّ الرّجوع إلى

السّياق؛ لمعرفة دلالة الوحدة التّركيبيّة من جانب، ودلالة النّصّ من جانب آخر، وذلك بالنّظر إلى الصّيغ المستخدمة في الخطاب، الّتي من شأنها الكشف عن معانٍ كامنة وراء تلك الصّيغ، "وهذا ما (أكّد عليه)(*) (أوستن) كثيرًا"[٢٩]، وبالنّظر إلى الصّيغ المستخدمة في النّصّ رأينا درجات من التّباين في منزلة المخاطب لدى (ابن الأثير) في رسائله، من خلال النّظر إلى مجموعة من الصّيغ التّركيبيّة الّتي تكشف لنا هذا الأمر، أمّا الكاتب، فللظّاهرة التّركيبيّة أثر بارز في دلالة النّصّ الّذي يكتبه، و(المثل السّائر) خير مثال، ودليل على ما نذهب إليه، وبالرّجوع إليه وجدنا أنّ الكاتب أَوْلى لعنصر التّركيب أهمّيّة كبيرة في الكشف عن خفايا النّصّ، ومعرفة المهمّ والأهمّ، فالتّقديم والتّأخير، والالتّفات، والتّوكيد كلُّها ظواهرُ تركيبيّةٌ تكلّم عنها (ابن الأثير) وبيّن أهمّيّتها، وسيعرض البحث هذه الظّواهر عند الحديث عن القوّة الإنجازيّة.

الدّلالة المعجميّة:

تتعدّد مقاصد المتكلّم في التّعبير عن أفكاره، يقول (أولمان): "إنّ اللّغة في استطاعتها أن تعبّر عن الأفكار المتعدّدة بتلك الطّريقة الحصيفة القادرة على تطويع الكلمات وتأهيلها للقيام بعدد من الوظائف المختلفة"[٣٠]، وبفضل ذلك تكتسب النّصوص دلالات عدّة، وقد تظهر الدّلالة الأصليّة (الدّلالة المعجميّة) في سياقات أخرى. ونعني بالدّلالة المعجميّة فيما يخصّ (الأفعال الكلاميّة): دلالة الأساليب الإنشائيّة: كالأمر، والنّهي، والاستفهام...، "ذلك أنّه في حالات كثيرة تشير دلالة المادّة بشكل تلقائيّ إلى المعنى، أو إلى احتمالات محدّدة له عن طريق تحديدها لبعض العناصر"[٣١]. فالدّلالة المعجميّة للأفعال الإنشائيّة قد تشير صراحة إلى معناها الصّريح، وقد تشير إلى معنى آخر يحدّده عنصر آخر من عناصر السّياق الأخرى. لذلك قبل الخوض في ملابسات المنطوق، ينبغي لنا الإشارة إلى أنّ عناصر السّياق اللّغويّ يكمّل بعضها بعضًا في معظم الأحيان.

ملابسات المنطوق:

قد تصاحب المنطوقَ جملٌ أو كلماتٌ تبيّن الغرض الإنجازيّ، وهي "تساعد مساعدة مهمّة جدّا في تحديد الغرض؛ فالأمر يمكن أن يكون أمرًا، أو إذنًا، أو عرضًا، أو التّماسًا، أو توسّلًا، أو اقتراحًا، أو توصيةً أو تحذيرًا... إلخ"[٣٢]. يقول (أوستن): إن هذه الألفاظ "تقحم في الغالب لتدلّ على أنّ العبارة المتلفظ بها (أو المكتوبة) ينبغي لنا أن تُعامل كما يقال، معاملة الأداة الّتي يُتوصل بها إلى جعل الفعل ذي أثر ومفعول كأثر التّحذير، والإيذان بالدّفع، وقسْ على ذلك"[٣٣].

ما ينبغي لنا الإشارة إليه أنّ (أوستن) أورد قوله (بموجب كذا) لتدلَّ على الملابسة للمنطوق[٣٤]؛ لكنّنا نجد ملابسات كثيرة تصاحب المنطوق لتبعده عن التّأويل المتعدّد، لتضعه في دوّامة الفعل الصّريح أو المعنى الواحد الدّالّ مثلًا على الأمر، أو الإيذان، أو غيرهما. فقد كتب (ابن الأثير) "عن (الملك الأفضل عليِّ بن يوسف) إلى (أسد الدّين شيركوه)... شفاعةً في أمر شخص من الحلبيّين"[٣٥]، يقول فيه: "والخادم يسأل في أمره بجزيل ما الشفاعة، ولا يقنع في الجواب بمجرّد القناعة، بل لا بدّ من إسقاط ما توجّه عليه حقًّا كان أم باطلًا"[٣٦]. قد اشتركت في هذا النّصّ ملابسات عدّة لبيان الإنشاء الأمريّ، حتّى إن لم يأتِ الأمر بصيغته الفعليّة، إلّا أنّها لنا أنّه أمرٌ واجبٌ تنفيذُه، وأوّل الملابسات: (لا يقنع في الجواب)، وثانيها: (بل لا بدّ من). فالمعنى : اصفحْ عنه سواء أَحَقًّا كان أم باطلًا.

فملابسات المنطوق قد تكون جملًا مستقلّةً عن الفعل الأدائيّ، كما أنّها قد تّكون جملًا مصاحبة للفعل الأدائيّ، صريحًا كان أم ضمنيًّا. ويقول في رسالة أخرى في الغرض نفسه: "والمملوك يسأل له مولانا الّذي هو طبيب حوادث النّفوس، ومخرج النّعماء من البؤس، فإنّه لم يقصده إلّا لعلمه أنّ كلمته عنده مقبولة، وشفاعته لديه مأمولة"[٣٧]. ألم نرَ أنّ الكلام بجملته التّماسٌ لا غير؟، والّذي دفعنا للإجابة عنه بلا تريّث هو صراحة النّصّ بكلّيته وملابساته الدّالّة على أنّه التّماس، فكلمة (مولانا)، ومدح (المفعول به) الّذي هو (مولانا)، وعطف المدائح الأخرى عليه، وقوله: (إلّا لعلمه أن كلمته...)، دلّت كلّها على أنّه التّماس لا غير.

السّياقُ غير اللّغويّ:

تعدّدت المصطلحات المتعلّقة بهذا العنصر السّياقيّ، فقد "مفهومه بين مصطلح: السّياق غير اللّغويّ، وسياق الموقف، والمقام، والحال وغير ذلك"[٣٨]. ولهذا العنصر من عناصر السّياق أهمّيّة كبيرة في نظريّة الفعل الكلاميّ؛ لأنّها نظريّة تواصليّة تعتمد على السّياق غير اللّغويّ اعتمادًا كبيرًا، ذلك لأنّ خصائص الفعل الكلاميّ: القصديّة، والمواضعة والتّعاقد، والحاليّة.

أمّا القصديّة، فهي الموافقة بين النّصّ وغاية المتكلِّم من إنشائة للنصّ أو لجملة ما؛ كي يحقّق غرضًا إنجازيًّا يوافق مقصديّته، والقصد هو الّذي يميّز العمليّة التّداوليّة عن الوظيفة الدّلاليّة.[٣٩] كما أنّه يحدّد غرض الفعل اللّغويّ المتلفظ به أيًّا كان، وذلك ما يساعد (المرسل إليه) في فهم المراد بسهولة[٤٠].

وأمّا المواضعة والتّعاقد، فإنّ نجاح الفعل الكلاميّ مرهون بالمواضعة المتّفق عليها لدى كلٍّ من المتكلّم والمخاطب، فلا يصحّ -مثلًا- تداول لغة رسائل (ابن الأثير) في ديوان الدّولة في هذا العصر؛ لأنّ شرط المواضعة والتّعاقد سيُلغى في هذه الحال، فـ"المتكلم ينظم ما هو جاهز داخل قدرته التّواصليّة انسجامًا مع نظام العلاقات الاجتماعيّة"[٤١]. كما أنّ للتعاقد بين الجماعات أثرًا في إبراز أسلوب وإضمار آخرَ حسب نوع التّعاقدات ومستوى كلٍّ من المتكلّم والمخاطب.

وتعني الحاليّة الموافقة بين المتكلّم -في الحال الّتي يتكلّم بها- والسّياق اللّغويّ، فالقول قد يُنجز أفعالًا في سياقات اجتماعيّة متنوّعة مختلفة. ويبدو أنّ (أوستن) لاحظ -من خلال هذه الخصّيصة- دور المنطوق في إنشاء الفعل لا في وصفه. فالقول: "نعم أقبل أنّ تكون هذه المرأة زوجتي الشّرعيّة" لا يصف واقعًا أو يخبر عنه؛ لأنّ الحال الّتي نطق بها تدلّ على القيام بفعل الزّواج لا الإخبار عنه.

وفي رحاب السّياق غير اللّغويّ، يرى الدّكتور (أحمد المتوكّل) أنّه "مجموعة العناصر الّتي تتوافر في موقف تخاطبيٍّ معيّن، وأهمّها زمان التّخاطب ومكانه، وعلاقة المتكلِّم بالمخاطب، وخاصّيّة الوضع التّخابريّ القائم بينهما، أيْ مجموعة المعارف الّتي تشكّل مخزون كلٍّ منهما أثناء عمليّة التّخاطب"[٤٢].

يتبيّن لنا ممّا سبق أنّ عناصر السّياق غير اللّغويّ الّتي نعوّل عليها في دراسة نظريّة الفعل الكلاميّ هي:

المتكلّم:

العنصر الّذي يبنى عليه النّصّ بكلِّ أجزائه؛ "كونه المفعِّل للسياق وأدواته وإجراءاته"[٤٣]، وهو النّاقل للواقع المضمر في ذهنه "باعتماده استراتيجيّة خطابيّة تمتدّ من مرحلة تحليل السّياق ذهنيًّا والاستعداد له، بما في ذلك اختيار العلامة اللّغويّة الملائمة، وبما يضمَن تحقّق منفعته الذاتيّة بتوظيف كفاءته للنجاح في نقل أفكاره

بتنوّعات مناسبة"[٤٤]؛ لذلك كان لزامًا في رحاب هذه النّظريّة الوعيَ بصفات المتكلّم لفهم الدّلالة، فمنها "صفات لازمة كالصّفات الجسمانيّة والعقليّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة... والثّاني صفات متغيّرة تختلف من فعل كلاميّ لآخر، والمهمّ من الصّفات ما يصلح أن يكون حالًا من الإنسان بوصفه متكلِّمًا"[٤٥].

كما أنّ هناك أمرًا مهمًّا يخصّ المتكلّم، ومن أجله أنتج النّصّ، ألا وهي القصديّة، الّتي عدّها (أوستن) شرطًا لنجاح الفعل الإنجازيّ بقوله: "فإنّ مسألة الأغراض والمقاصد في التّلفّظ بالعبارة وما يحتفّ بها من سياق قرائن الأحوال هي مسألة لها خطرها وشأنها"[٤٦]؛ لأنّها كما يبدو تبعد التّأويلات المستبعدة، وتأتي بالغرض المراد إنجازه.

ولتحقّق القصد يجب توفّر ثلاثة عناصر[٤٧]:

١- وجود منتج له أهداف ومقاصد معيّنة تبثّها الرّسالة.

٢- وجود متلقٍّ يجيد اقتناص خفايا النّصّ.

٣- قناة تواصليّة تربط منتج النّصّ بمتلقّيه.

هذه العناصر الثّلاثة لا تبيّن القصد بل تصنعه، أمّا بيان القصد فيظهر باعتبارات عدّة منها: "هوية المنتج، ومكان الخطاب وزمن الخطاب، والظّروف الّتي تكتنف الخطاب، وعمليّات الاستدلال الّتي يقوم بها المتلقي ليحلّل الخطاب وصولًا إلى المعنى أو مضمون الكلام أو النّصّ"[٤٨]. فالقصديّة استخدام الوسائل الّتي من شأنها إيصال المعنى إلى المتلقّي من دون التّصريح به حرفيًّا.

المتلقّي (المرسَل إليه):

وهو العنصر الثّاني في المسار التّواصليّ، ويجب على المتكلم صوْغ " كلامه وفقًا لحال المتلقّي، فإنّ الفهم الصّحيح لأيّ قول إنجازيّ لا يَتأتّى دون التّعرّف على المتلقي وحاله الّتي راعاها المتكلّم في خطابه"[٤٩]، لذلك على المتكلّم مراعاة كلّ ما يتعلّق بالمتلقّي من صفات لتحقيق التّواصل السّليم والهادف؛ فعلى سبيل المثال ينبغي للمتكلّم مراعاة الوظيفة العمليّة للمخاطب من النّاحية المهنيّة أو الاجتماعيّة، لتحديد فضاء النّصّ هل هو ذو صفة فكريّة أم ثقافيّة[٥٠]، كذلك تخضع هذه الصّفات نفسها لسلّمية عليا أو دنيا.

مقتضيات الخطاب:

إنّ أيّة طريقة يلجأ إليها المتكلّم في صنع الخطاب يراعي فيها مقتضيات خطابيّة لولاها لكان الخطاب مبهمًا. ولمعرفة التّفسير الصّحيح للفعل الكلاميّ ينبغي لنا أن النّظر في الصّفات الذاتيّة الّتي يعوّل عليها كلٌّ من (المرسل، والمرسل إليه) لتحقيق التّفاهم التّخاطبيّ في فضاء تديره معرفة لغويّة مشتركة، ودلالات تركيبيّة مشتركة أيضًا[٥١]. كما أنّ المعلومات الخارجيّة الّتي يشترك في الإحاطة بها كلٍّ منهما، والّتي من شأنها إظهار معانٍ مستلزمة تبيّن مراد (المرسل) من الكلام، ويمكن إجمال هذه المعلومات في الرّسائل بالآتي:

-معرفة دينيّة (آيات وأحاديث).

-معرفة تاريخيّة(وقائع وأحداث وأعلام).

-معرفة أدبيّة(شعريّة، وحكميّة وأمثال).

إنّ الرّكائز الأساسيّة الّتي عنيت بها اللّسانيّات، والّتي راعتها في صنع الخطاب النّاجح والهادف تتمثّل في المتكلّم والمخاطَب والقصد، فالمتكلّم قد يقول شيئًا في مقام ويتلافاه في آخر، وقد يفتتح بالثّناء والدّعاء في موضع ويدخل في صلب الموضوع في موضع آخر، جريًا مع مقتضى الحال، وهذه الأدوار الّتي تلازم العبارات "تترتّب عليها سلوكيّات وتطلّعات عمليّة من لدن النّاطق"[٥٢]. كما تترتّب عليها استجابات تأثيريّة من لدن (المرسل إليه)، تختلف حدّتها بمقدار الحدّة الملقاة في أثناء النّصّ.

الزّمان والمكان:

تفسير النّصّ والوصول إلى (معنى المعنى) تدلّ عليه عمليّات استدلاليّة (لغويّة وغير لغويّة). ومن ضمن هذه الاستدلالات (الزّمان والمكان) وأثرهما في فكّ شفرات النّصّ، ذلك لأنّ الدّرس اللّسانيّ الحديث لم يكتفِ "بالعناية ببنية النّصّ فقط، بل اتّجه إلى العوامل المؤثِّرة في صناعة الفنيّة بتحليل يتّسم بالاتّساع والشمول"[٥٣].

وأمّا الزّمان، فهناك:

-زمان تركيبيّ.

-زمان معجميّ.

كذلك الحال في المكان:

-مكان تركيبيّ.

-مكان معجميّ.

وفي رحاب السّياق الخارجي ونظرية الأفعال الكلاميّة بؤرة الاهتمام تنصبّ نحو الزّمان والمكان المعجميّين، نبيّنهما في الخطاطة الآتية[٥٤]:

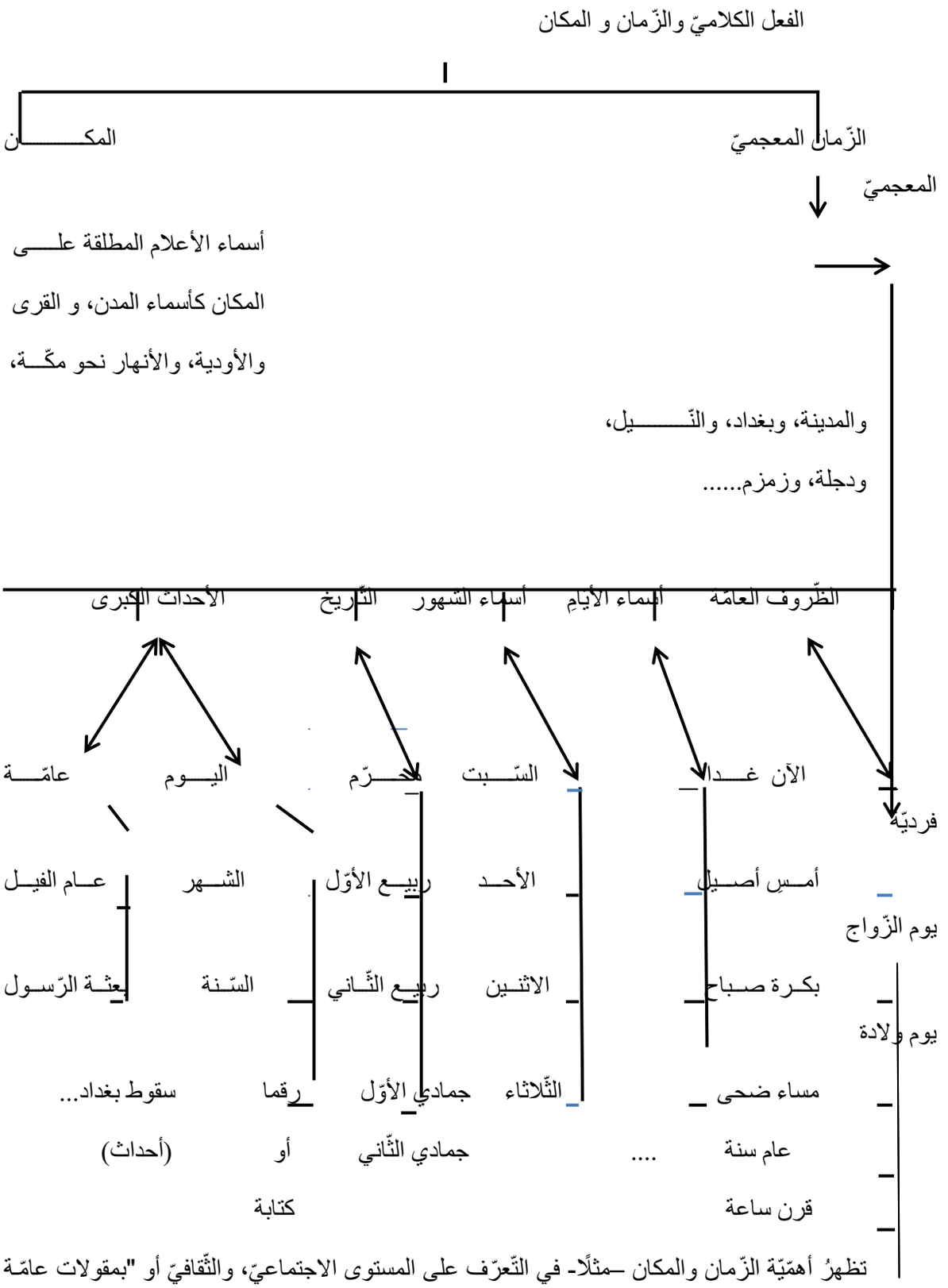

تظهرُ أهمّيّة الزّمان والمكان –مثلًا- في التّعرّف على المستوى الاجتماعيّ، والثّقافيّ أو "بمقولات عامّة لها أثرها في ساكني المكان، ومن ثَمَّ في النّصوص الصّادرة عنهم و الموجَّهة إليهم"[٥٥]. لذلك فإنّ المتكلّم مسؤول عن ذلك كلّه "حيث يجب أن يكون قادرًا على المراقبة والرّبط بما تستدعيه عمليّة التّلفّظ ومعطياتها الخاصّة"[٥٦]، كما أنّ مضمرات (الخبر والإنشاء) قد تبقى مبهمة في حالات ما إذا لم تقيّد بسياق زمانيٍّ ومكانيٍّ

يكشف كلٌّ منهما الإنجاز الصّريح والضّمنيّ ومدى تأثير النّصّ بارتباطه بالزّمان والمكان المناسبين- في المتلقّي.

النتائج:

- يعد السياق نقطة مفصلية في الكشف عن المعاني التي تختلط على المتلقي أو تدفعه إلى دوامة التخمينات التي تنتج له أكثر من معنى، بالتالي، الخلط بين الأفكار أو الفهم الخاطئ.

- لا يمكن الفصل بين عناصر السياق اللغوي أو غير اللغوي في أغلب السياقات؛ وقد جاء هذا التقسيم لغرض الدراسة.

- معرفة صفات كل من المتكلم والمتلقي أمر ضروري في بعض السياقات التي تحتاج إلى ذلك.

- يميل معظم المتكلمين –وبخاصة البلاغي- إلى المعاني المضمرة؛ لذلك تظهر أهمية السياق في هذه الظروف.

- لا يختلف اثنان على أهمية السياق الخارجي في الكشف عن المعاني، مثلا: صفات المكان أو تحديد الزمان أو غيرها من الأمور التي يحتاجها المحلل لكشف خفايا النص الأدبي.

الحواشي

(١) معاني النّحو، الدّكتور فاضل صالح السّامرائي: ٢٧١/٢.

(٢) ديوان جرير: ٣٦٣.

(٣) معاني النّحو: ٢٧١.

(٤)المصدر نفسه: ٢٧١.

(٥) الاستلزام التّخاطبي في الدّراسات النّقدية العربية المعاصرة، أطروحة دكتوراه، كلية التّربية- جامعة ديالى، أنمار إبراهيم أحمد، ٢٠١٥م، ص٣٨-٣٩.

(٦) نشرة (ق، هـ): ١٥٦. الأيّم: المرأة التي لا زوج لها. ينظر: التاج: ٥١/٩.

(٧) المصدر نفسه: ١٥٨.

(٨) ينظر: نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأشياء بالكلمات)، أوستن، ترجمة: عبد القادر قينيني: ٤٦.

(٩) ينظر: المصدر نفسه: ٦٥.

(١٠) ينظر: اللّغة و المعنى و السّياق، جون ليونز: ٢٠٠.

(١١) ينظر: النّص و السّياق، فان دايك، ترجمة عبد القادر قنيني: ٢٧١، وكذلك يرى (ريتشارد). ينظر: بلاغة الخطاب وعلم النّص، د. صلاح فضل: ١٣٨.

(١٢) ينظر: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة: ١٢٩.

(١٣) المصدر نفسه: ١٢٩.

(١٤) المعنى خارج النّص أثر السّياق في تحديد دلالات الخطاب، فاطمة الشيدي:٢٢.

(١٥) ينظر: المثل السّائر: ٢٧٠/١.

(١٦) لسانيات الخطاب الأسلوبية والتّلفظ والتّداولية، حمو الحاج ذهبية: ١٤٠.

(١٧) علم الصّرف الصّوتي، الأستاذ الدّكتور عبد القادر عبد الجليل: ١٥١.

(١٨) أدبية الخطاب في المثل السّائر: ١٨١.

(١٩) CF. Richard, lbid, P ١٤٣.

نقلا عن: منطق تحليل الخطاب التّعريفي بين أفعال الكلام والنّقد الجديد، د. أديب سيف: ٢٨٧.

(٢٠) منطق تحليل الخطاب التّعريفي بين أفعال الكلام والنّقد الجديد: ٢٨٨.

(٢١) نشرة (ق، هـ): ٦٥.

(٢٢) تقع في الأردن، وبينها وبين دمشق وبيت المقدس ثلاثة أيام. ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي: ٤/ ١٧.

([٢٣]) نشرة (ق، هـ): ٦٧.

([٢٤]) المصدر نفسه: ٨٣.

([٢٥]) المصدر نفسه: ٨٨.

([٢٦]) للاطلاع أكثر ينظر: فاعلية الصّوت في إنتاج الدّلالة، الأستاذ عمران رشيد، مجلة علوم اللّغة العربية وآدابها، دورية أكاديمية محكمة متخصصة تصدر عن كلية الآداب و اللّغات-جامعة الوادي، العدد الثامن-سبتمبر ٢٠١٥: ص٢٦٧.

([٢٧]) أصوات تراثية في علم اللّغة، كريم زكي حسام الدّين: ١٥٨.

([٢٨]) دور السّياق في حل مشكلات المعنى دراسة نماذج من المعاني النّحوية في تراكيب اللّغة العربية، عبد القادر فرح (بحث)، ضمن كتاب نظرية السّياق بين التّوصيف والتّأصيل والإجراء، تحرير: أ. د. محمد عبد العزيز عبد الدّايم- د. عرفات فيصل المناع: ص٣٣٩.

*أكده

([٢٩]) الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة: ١٣٠.

([٣٠]) الدلالة المعجمية وآليات التوليد الدلالي دراسة تطبيقية مقارنة، د. أحمد عبد العزيز دراج، (مقال) ضمن علوم اللغة- دراسات علمية محكّمة تصدر أربع مرات في السنة (كتاب دوري)، المجلد الرابع، العدد الرابع، ٢٠٠١: ٢٦٦.

([٣١]) الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة: ١٣٠.

([٣٢]) تعديل القوة الإنجازية دراسة في التّحليل التّداولي للخطاب، محمد العبد، مجلة فصول، العدد ٦٥: ص١٤١.

([٣٣]) نظرية أفعال الكلام العامة: ٧٣.

([٣٤]) ينظر: المصدر نفسه: ٧٣.

([٣٥]) نشرة (ق، هـ): ١٣٠.

([٣٦]) المصدر نفسه: ١٣٠.

([٣٧]) المصدر نفسه: ١٥٣-١٥٤.

([٣٨]) سياق الحال في الفعل الكلامي -مقاربة تداولية-، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران-كلية الآداب و اللّغات و الفنون-قسم اللّغة العربية و آدابها، سامية بن يامنة، ٢٠١١-٢٠١٢: ص٣٢٧

([٣٩])Luis Jorge, PRIE TO; Messages et signaux, presses Universitaires de France, Paris ١٩٧٢.

نقلا عن: استراتيجيات التّواصل في البلاغ القرآني: ٣٩٩.

([٤٠]) ينظر: استراتيجيات التّواصل في البلاغ القرآني: ٤٠٠.

([٤١]) سياق الحال في الفعل الكلامي: ١٤٢.

([٤٢]) المنحى الوظيفي في الفكر اللّغوي العربي الأصول والامتداد، د. أحمد المتوكل: ص١٧٠.

([٤٣]) سياق الحال في الفعل الكلامي: ٣٠.

([٤٤]) استراتيجيات الخطاب: ٤٥.

([٤٥]) الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة:١٣١

([٤٦]) نظرية أفعال الكلام العامة: ١٦٤.

([٤٧]) ينظر: القصدية والمقبولية بين التّراث النّقدي والدّرس اللّساني الحديث، مليود مصطفى عاشور-أياد نجيب عبد الله، مجلة مجمع جامعة المدينة العالمية المحكمة-ماليزيا، العدد السّابع عشر، ٢٠١٧: ٣٥٥.

([٤٨]) القصدية والمقبولية بين التّراث النّقدي والدّرس اللّساني الحديث: ٣٥٧.

([٤٩]) الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة: ١٣٢.

([٥٠]) ينظر: دلالة السّياق، ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطّلحي، أطروحة دكتوراه، ١٤١٨هـ: ج٢/ ص٦٠٨.

([٥١]) ينظر: اللّسان والميزان: ١٥٢.

([٥٢]) المصدر نفسه: ١٥٢.

([٥٣]) أثر السّياق الزّمني و المكاني في تكوين الصّورة البيانية-شعر خالدّ الكاتب أنموذجا، الأستاذ الدّكتور علي كاظم أسد-المدرس كاظم عبد الله عبد النّبي، جامعة الكوفة-كلية الآداب، مجلة اللّغة العربية و آدابها، السّنة ٢٠١٤، المجلد ١، الإصدار ١٩: ص٧٣.

([٥٤]) ينظر: دلالة السّياق: ٢/ ٦٢١- ٦٢٣.

([٥٥]) دلالة السّياق: ٢/ ٦٢٤.

(٥٦) سياق الحال في الفعل الكلامي: ٣٤.

مصادر البحث:

- أثر السّياق الزّمني و المكاني في تكوين الصّورة البيانية-شعر خالدّ الكاتب أنموذجا، الأستاذ الدّكتور علي كاظم أسد-المدرس كاظم عبد الله عبد النّبي، جامعة الكوفة-كلية الآداب، مجلة اللّغة العربية و آدابها، السّنة ٢٠١٤، المجلد ١، الإصدار ١٩-
- استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتب الجديدة المتحدة، ط١، ٢٠٠٤.
- استراتيجية التواصل في البلاغ القرآني، د. ليلى جودي، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٢.
- الاستلزام التّخاطبي في الدّراسات النّقدية العربية المعاصرة، أطروحة دكتوراه، كلية التّربية- جامعة ديالى، أنمار إبراهيم أحمد، ٢٠١٥م
- أصوات تراثية في علم اللغة، كريم زكي حسام الدين، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٨٥.
- بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، عالم المعرفة- الكويت، د. ط. ت.
- تعديل القوة الإنجازية دراسة في التّحليل التّداولي للخطاب، محمد العبد، مجلة فصول، العدد ٦٥.
- دلالة السّياق، ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطّلحي، أطروحة دكتوراه، ١٤١٨ه.
- الدلالة المعجمية وآليات التوليد الدلالي دراسة تطبيقية مقارنة، د. أحمد عبد العزيز دراج، (مقال) ضمن علوم اللغة- دراسات علمية محكّمة تصدر أربع مرات في السنة (كتاب دوري)، المجلد الرابع، العدد الرابع، ٢٠٠١
- دور السّياق في حل مشكلات المعنى دراسة نماذج من المعاني النّحوية في تراكيب اللّغة العربية، عبد القادر فرح (بحث)، ضمن كتاب نظرية السّياق بين التّوصيف والتّأصيل والإجراء، تحرير: أ. د. محمد عبد العزيز عبد الدّايم- د. عرفات فيصل المناع
- ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر-بيروت، د. ط، ١٩٨٦.
- رسائل ابن الأثير، ضياء الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري (٦٣٧هـ): تنشر لأول مرة، دراسة و تحقيق: نوري حمودي القيسي_ هلال ناجي، منشورات جامعة الموصل- ندوة أبناء الأثير. د. ت. ط.
- سياق الحال في الفعل الكلامي -مقاربة تداولية-، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران-كلية الآداب و اللّغات و الفنون-قسم اللّغة العربية و آدابها، سامية بن يامنة، ٢٠١١-٢٠١٢
- علم الصرف الصوتي، الأستاذ الدكتور عبد القادر عبد الجليل،دار صفاء للنشر والتوزيع- عمان، ط١، ٢٠١٠م.
- فاعلية الصّوت في إنتاج الدّلالة، الأستاذ عمران رشيد، مجلة علوم اللّغة العربية وآدابها، دورية أكاديمية محكمة متخصصة تصدر عن كلية الآداب و اللّغات-جامعة الوادي، العدد الثامن-سبتمبر ٢٠١٥
- في البراجماتية: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصر دراسة تداولية و معجم سياقي، د. علي محمود الصراف، مكتبة كلية الآداب-جامعة الكويت، ط١، ٢٠١٠.
- القصدية والمقبولية بين التّراث النّقدي والدّرس اللّساني الحديث، مليود مصطفى عاشور-أياد نجيب عبد الله، مجلة مجمع جامعة المدينة العالمية المحكمة-ماليزيا، العدد السّابع عشر، ٢٠١٧.
- القصدية والمقبولية بين التّراث النّقدي والدّرس اللّساني الحديث، مليود مصطفى عاشور-أياد نجيب عبد الله، مجلة مجمع جامعة المدينة العالمية المحكمة-ماليزيا، العدد السّابع عشر، ٢٠١٧.
- لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، حمو الحاج ذهبية، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠١٢.
- اللغة و المعنى و السياق، جون لاينز، ترجمة: د. عباس صادق الوهاب، مراجعة: د. يوئيل عزيز، دار الشؤون الثقافية العامة(أفلق عربية)، ط١، ١٩٨٧.
- معاني النحو، الدكتور فاضل صالح السامرائي، دار السلاطين للطباعة النشر والتوزيع، الأردن-عمان، ط١، ٢٠١٠م.
- المعنى خارج النص أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب، فاطمة الشيدي، دار نينوى- دمشق، ٢٠١١.
- المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول و الامتداد، د. أحمد المتوكل، دار الأمان-مطبعة الكرامة-الرباط، ط١، ٢٠٠٦.
- منطق تحليل الخطاب التعريفي بين أفعال الكلام والنقد الجديد، د. أديب سيف، دار الفارابي، ط١، ٢٠١٥.
- النص و السياق، فان دايك، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق: الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٩.
- نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأشياء بالكلمات)، أوستن، ترجمة: عبد القادر قينيني، إفريقيا الشرق، ١٩٩١.

المصادر الأجنبية:

CF. Richard, lbid, P

Luis Jorge, PRIE TO; Messages et signaux, presses Universitaires de France, Paris ١٩٧٢